تجربتي مع الدين

محمّد باقر السيستانيّ

محاضرة ألقيت على جمع من أساتذة وطلبة الجامعات

بتاريخ ٢٥ ذي القعدة ١٤٣٩هـ

في النجف الأشرف

الطبعة الثانية

منقّحة ومزيدة

هذه السلسلة

مجموعةُ محاضرات أُلقيت في جمع مـن أسـاتذة وطلاب الجامعات ، وكانت في الحـديث عـن حقيقـة الـدين وحقّانيّتـه والحاجـة إليـه فـي ظـلّ الإثـارات المعاصـرة ، وقـد تضـمّنت توضـيح أنبائـه الكبـرى وقيمه النبيلة ، وبيـان أنّ الـدين ينطلـق فـي رسـم أبعاد الحياة والإنسان مـن منطلـق عقلائـيّ راشـد ، وكذلك ينطلق في تشريعاته وقوانينه مـن منطلـق فطـريّ سـليم ومـن مقتضـيات الضـمير الإنسـانيّ ، وتضمّنت أموراً أخرى تفصيليّة .

وكـان ذلـك كلّـه بهـدف الحـثّ والإعانـة علـى التبصّر الذي يقتضيه العقل ويوصي به الدين .

وقد يلحظ الناظر مضامين مشتركة بـين أكثـر من محاضرة ، لأنها جـاءت فـي أوقـات مختلفـة غيـر متقاربة ولمجـاميع عـدّة ، وكـان تحديـد مضـمونها على وفق اقتضاء محور البحث فيها ، وذلك أدّى إلـى هذا الاشتراك.

ولم أشأ تغيير وضعها وجعلها في صـورة كتـاب واحد يتألّف من فصول ، لأنّ لوضعها هذا إيجابيّاته التي سوف يلمسها الباحث عند قراءتها .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين، لاسيّما (محمّد) خاتم النبيّين، وعلى آله الطيّبين الطاهرين.

تمهيد:

إنّ من الضروريّ لكلّ إنسان راشد أن يتحقّق في أمر الدين وحقّانيتّه، وأن يتبصّر بما جاء به حول آفاق هذه الحياة، وموقع الإنسان في هذه النشأة ومصيره بعدها، ودور أعماله وخصاله في العاقبة التي ينتظرها؛ من جهة أهميّة هذا الموضوع، ودوره في سعادة الإنسان وشقائه.

وقد تحققتُ من هذا الأمر، وتثبّتُ لنفسي ـ بالأدوات

العقلانيّة الملائمة ـ حول هذا الموضوع، فوجدتُ بعد التحرّي والتأمّل الجامع أنّ هناك شواهد قائمة وكافية على ذلك فعلاً، أورثت قناعةً في عقلي، واطمئناناً في نفسي بأن هناك إلهاً صانعاً لهذا الكون الجميل بل المذهل، وأنه متصف بالأخلاق الفاضلة، فيحب العدل والخير، ويكره الظلم والشر، وأنه معني بالإنسان، فهو خلقه خلقاً مميزاً مشتملاً على بعدين: مادي، وروحاني، مزوداً إياه بقوة التفكير وروح الحكمة والضمير المنطوي على القيم النبيلة والإرادة الحرة التي يستطيع من خلالها التحكم في اتجاه أعماله، فإن شاء اختار الخير والهدى، وإن شاء اختار الشر والردى. وقد أرسل إليه رسالة يبين فيها آفاق الوجود ومستقبل الإنسان، وأيقنت أنني فعلاً أسير في هذه الحياة إلى الله تعالى في مسيرة طويلة إلى حياة خالدة يكون للإنسان درجته بحسب تبصره في هذه الحياة وسلوكه فيها، فهذه الحياة ليست مستقراً، بل هي ممرّ ومعبر.

لقد طلب منّي أن أتحدّث في هذا اللقاء عن تجربتي مع الدين. وإنّني ـ استجابة لذلك ـ سوف أصِف تجربتي هذه؛ لتكون شهادةً منّي على تبصّري لنفسي في هذه الحياة. راجياً أن ينفع الله تعالى بها كلّ إنسان راشدٍ يسعى

إلى التبصّر في حقيقة هذه الحياة وغاياتها وموقعه فيها.

وكنت قد وصفت هذه التجربة من قبل في نهاية بحث: **(رسالة الله إلى الإنسان)**[١] من كتاب **(الأنباء الثلاثة الكبرى)** ضمن سلسلة: **(منهج التثبت في الدين)**، ولكن سوف أصفها هنا بتفصيل أكثر لبعض النقاط[٢].

---

(١) ص:٥٢٣ وما بعدها.

(٢) لقد وصفت مباني هذه التجربة توصيفاً علمياً تفصيلياً في سلسلة (منهج التثبت في الدين)، وقد اشتملت على خمسة كتب.

وصفت في الكتاب الأول (حقيقة الدين) وذكرت معالمه الرئيسية ـ من الرؤية المعرفية والكونية والإنسانية والتشريعية ـ.

ووصفت في الكتاب الثاني (اتجاه الدين في مناحي الحياة) وعنيت بمناحي الحياة العقلانية العامة والعلم والحكمة والأخلاق والإلهام والعدالة والأبعاد الروحية للإنسان والسعادة والحرية الشخصية والقانون والسياسة والمعاصرة، وبنيت أن اتجاه الدين في هذه المناحي كلها اتجاه فطري وعقلاني وملائم.

ووصفت في الكتاب الثالث (ضرورة المعرفة الدينية) للإنسان.

وفي الكتاب الرابع وصفت (القواعد الفطرية العامة للمعرفة الإنسانية والدينية).

وكان الكتاب الخامس حول (الأنباء الثلاثة الكبرى: وجود الإله، والمعاد، والرسالة) وذلك في أجزاء أربعة.

[المرحلة الأولى: الاهتمام بالدين وموجباته]:

إنّ الذي أوجب اهتمامي بالدين أمران[١]:

بقاء الإنسان بعد هذه الحياة ووجود الدار الآخرة

الأمر الأوّل: إخبار الدين عن عدم فناء الإنسان وبقائه حياً ليعود فيكون مرتهناً بأعماله التي عملها في هذه الدنيا.

وبذلك تكون الدنيا هذه مزرعةَ الآخرة، فيزرع المرء اليوم ليحصد ما يراه غداً، ولا تكون هذه الحياة محلّ لهوٍ واستراحة واسترسال، بل موطن تعلّم واختيار، يتعلّم فيها الإنسان سننها ومختلف السبل فيها ويختار ما يشاء منها.

وهي فرصة اختبارٍ للإنسان من خلال حوادثها؛ فحوادث الحياة أشبه بأسئلةٍ امتحانية، وردّ فعل الإنسان تجاهها يمثّل أجوبته عن تلك الأسئلة، فيكون لكلّ أحدٍ درجته في المشهد المقبل حسب مساعيه وأعماله فيها.

إن هذا النبأ لهو نبأ خطير للغاية لا يبلغ المرء عمقه

---

(١) لاحظ في تفصيل ذلك المحاضرة الرابعة من هذه السلسلة حول (أهمية البحث عن الدين)، ومزيد تفصيله في كتاب ضرورة المعرفة الدينية.

ولا يستطيع أن يقدّره حقّ تقديره.

وقد تمر عليَّ لحظات أستحضر فيها هذه الحقيقة، وأفكّر في أبعادها، فأستعظمها، وأشعر أنّني لا أحتملها. فكيف أستثمر حياةً بهذا الجد استثماراً لائقاً؟ فربع عمر الإنسان ـ على الأقل ـ ينقضي بالمنام، وباقيه يكثر فيه الإهمال والاسترسال والاستراحة، وحيثما يعمل الإنسان عملاً يتوقّعه صالحاً لا يُحرِز فيه سلامة النيّة والإخلاص، بل تعتريه هواجس المصانعة والتكلّف والمآرب الدنيوية.

على أنّه ماذا عسى أن تكون أعمال مثلي ـ في مضمار السباق في هذه الحياة ـ مع أعمال الصالحين المتبصرين والنابهين الذين نظروا إلى هذه الحياة بنظرة ثاقبة وحكيمة، الذين نفذوا من ظواهر الأمور إلى بواطنها، وتجاوزوا في تأملهم حاضرها إلى مستقبلها وغايتها، ونذروا أنفسهم لاستثمار هذه الحياة على الوجه الأمثل[1]؟!

---

(١) وقد وصف الإمام علي عليه السلام أحدهم في كلام له، حيث قال: ((قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا، وَأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدَبِهَا، مِنَ الاْقْبَالِ عَلَيهَا، وَالْمَعْرِفَةِ بهَا، وَالتَّفَرُّغِ لَهَا، فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّتُهُ الَّتِي يَطْلُبُهَا، وَحَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا)) (نهج البلاغة ص:٢٦٣/ تحقيق: صبحي الصالح).

وقد يبلغ القلق بالمرء أحياناً أن يودّ أنّه لو لم يوجد، أو أنّ الله تعالى توفّاه قبل سن الرشد والتكليف. كما جاء في القرآن الكريم عن مريم عليها السلام قولها عند ولادة عيسى عليه السلام: ﴿يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا﴾(١).

وربما يتمنّى المرء أن يرزقه الله الشهادة في سبيله؛ ليكون تداركاً لما يجده في نفسه من إهمال وتقصير. فالشهادة في شأن أمثالي كالغنيمة الباردة مقارنةً مع ضبط النفس طيلة حياتي على الخصال الفاضلة والسلوك الصالح.

إنّني لأتوقع أنّ الإنسان المعتقِد لو مَرّ بعد الممات على شريط حياته وأحداثها ينتابه العجب من أعماله، رغم الإيمان بالله سبحانه وتعالى والدار الآخرة، ويتمنى لو بنى نفسه على نحو أمثل، واتصف بمزيد من بُعد النظر واليقين بالمستقبل، وازداد من التقوى والصلاح، كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وقد مرّ على المقبرة: «أما لو أُذِن لهم في الكلام لأخبروكم أنّ خير الزاد التقوى»(٢).

---

(١) سورة مريم: ٢٣.

(٢) نهج البلاغة ص:٤٩٢/ تحقيق: صبحي الصالح.

فكم من وقت ضيّعه؟!

وكم من فرصة للخير أهملها؟!

وكم من تصرّف في قولٍ أو فعلٍ استرسل فيه من دون نقد وتمحيص؟!

فكيف يتهيّأ الإنسان في هذه الحياة تهيّؤاً لائقاً لما بعدها وفي كلّ خطوةٍ منه أو إهمال أثرٌ خالدٌ على حياة خالدة؟

وحقاً ما كان يناجي به أمير المؤمنين عليه السلام مع ربه ونفسه في آناء الليل وهو يتأمل محدودية العمر في هذه الحياة والخلود فيما بعدها: «آهٍ من قلّة الزاد وطول الطريق»[1].

إنّني كلّما تأمّلت في أمر الله سبحانه وتعالى والدار الآخرة أجد أنّ لهذا النبأ أبعاداً يصعب حسابها، وأشعر ـ حقاً ـ لو أنّني نذرت كلّ قدراتي ولحظاتي ـ عدا مقدار الضرورة من نوم وأكل وراحة ـ لأعمال البرّ من العبادة، والشكر للخالق، والإيفاء بحقوق الخلق، والإحسان إلى الآخرين، لكان بذلك جديراً.

---

(١) نهج البلاغة ص:٤٨١/ تحقيق صبحي الصالح.

وهذا كلّه قد يؤدي إلى يأس الإنسان من العلاج، لكنّني في لحظات الوجل والرعب لتأمّل هذا المشهد أستذكر ما وصف الله سبحانه وتعالى به نفسه من اللطف والرأفة والرحمة بالخلق، والمغفرة لما صدر لهم من الخلل والتقصير، فتسكن بذلك نفسي ويطمئن قلبي.

وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّ اللَّـهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾(١)، وقال جلّت آلاؤه: ﴿**وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ**﴾(٢)، وقال عز من قائل: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾(٣).

إنّ نبأ الدار الآخرة حقاً نبأٌ عظيم ومذهل، وقد أثار هذا النبأ مخاوفي ووجلي حتى عندما كنت في طور التفكير في شأن الدين.

لقد كان احتمال صدق هذا النبأ بشكل جادّ(٤) يأخذني إلى الاهتمام بالتحقّق في أمر الدين، ويمنعني من

---

(١) سورة الحج:٦٥، والبقرة:١٤٣.

(٢) سورة البروج:١٤.

(٣) سورة الرعد: ٢٨.

(٤) ينظر في تفصيل ذلك (ضرورة المعرفة الدينية) ص:٧٣ وما بعدها.

أن أواجه هذا النبأ بالإهمال والتقاعس والاكتفاء بإثارة الشبهة ثمّ الخلود إلى اهتمامات هذه الحياة الدنيا، بل أرى إنّني لو وقفت على الشكّ في أمر الدين لكان حريّاً بهذا النبأ ـ نبأ الآخرة ـ أن يوجب تحوّطي في سلوكي بما يقتضي الحذر من الخطايا، والسعي في تهذيب النفس والتخلّص عن الخصال الذميمة.

عناية الله تعالى الخاصّة بالإنسان

الأمر الثاني: ما جاء في الدين من عناية الله بخلقه، واهتمامه الخاص بالإنسان. حيث جاء فيه ما يفيد أنّ الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان مزوّداً بالعقل والضمير والإرادة الحرّة؛ لكي يدركه بعقله، ويشكره بضميره، وينتفع بما هيّأ له من النعم في هذه الحياة.

كما جاء فيه أيضاً أنّه سبحانه وتعالى سوف يتولّى الإنسان في هذه الحياة بمقدار استجابته لما زرعه فيه من الهدي، فإذا شكر الله زاده، وإن ناجاه استمع إليه، وإن أثنى عليه قدّره، وإذا ناداه استجاب له.

فيكون مثل الله سبحانه وتعالى بالنسبة إلى الإنسان

مثل الأبوين، ولكنْ في موقع أعلى مهيمنٍ على الأشياء كلّها.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى الخالق للإنسان قد خلقه لهذه الغاية وطلب منه أن يتحلّى بمعرفته والشكر له، فحريٌّ بالإنسان ـ بما أوتي من الضمير ـ أن يستجيب لأمر الله سبحانه شكراً على إنعامه واستزادة في معروفه، واكتساباً لولايته.

وكيف للإنسان أن يجفو الله سبحانه وهو خالقه والمنعم والمتفضّل عليه، حتّى أنّه سبحانه يدعوه فلا يجيبه، ويحثّه فيتوانى عنه، ويرشده فلا يأخذ بإرشاده، حتى كأنّه هو المحتاج إلى الإنسان!

فما ألطفه من ربٍّ منح كلَّ شيءٍ للإنسان ثمّ يستقرضه ممّا آتاه ـ وهو غني عنه ولو شاء لاستردّ ما أخذه وكان الإنسان والأشياء كلها عدماً ـ.

يقول عزّ وجلّ: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ**﴾[1].

---

(١) سورة الحديد: ١١.

وما أقبح بالإنسان أن يجهل حقَّ الله سبحانه وتعالى ويعيش كالأنعام، كما قال تعالى: ﴿**وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾(١).

وحقاً ما جاء في الدعاء من قول الداعي: «**إِنَّكَ تَدْعُونِي فَأُوَلِّي عَنْكَ، وَتَتَحَبَّبُ إِلَيَّ فَأَتَبَغَّضُ إِلَيْكَ، وَتَتَوَدَّدُ إِلَيَّ فَلا أَقْبَلُ مِنْكَ، كَأَنَ لِيَ التَّطَوُّلَ عَلَيْكَ، فَلَمْ يَمْنَعْكَ ذلِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ لِي وَالِاحْسانِ إِلَيَّ، وَالتَّفَضُّلِ عَلَيَّ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ**»(٢).

يضاف إلى ذلك: أنّ الله سبحانه وتعالى إذا كان قد خلق الكون والإنسان لهذه الغاية فإنّه يكون ـ بطبيعة الحال ـ قد سنّ وجود الإنسان وما حوله على سنن تنتج السعادة إن سار على وفقها، فتكون هي المسيرة الصحيحة في الحياة، والسبيل السالك فيها، ويكون سلوك أيّ سبيل آخر خطأً فاحشاً، كما قال الله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**

---

(١) سورة إبراهيم: ٣٤.

(٢) تهذيب الأحكام، ج:٣ ص:٨٣.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

إذن.. تيقّنتُ أنَّ هناك أهميةً للدين بالنظر إلى هذين الأمرين اللذين وصفتهما:

أحدهما: بقاء الإنسان بعد هذه الحياة ووجود الدار الآخرة.

والآخر: وجود الله سبحانه وتعالى، المعني بالإنسان، الراغب في تواصل الإنسان معه، ومعرفته به، وشكره إيّاه، وتقديره بما ينبغي تقدير مثله في الصفات الكمالية الفاضلة والإنعام.

لذلك كلّه وجدت أنّ أمر الدين خطيرٌ للغاية، فلا يسعني أن أقابله بالإهمال والشكّ، بل لا بدّ أن أتحقّق منه تحقّقاً يوجب الوثوق به والطمأنينة إليه والأخذ بتعاليمه، أو يوجب الوثوق بخطئه وثوقاً أتحمّل مسؤولية الخطأ فيه إذا كان قد اتّفق.

فأهميّة مضمون الدين بالنسبة لي ـ حسب شهادة عقلي ـ بدرجة لا يملك الإنسان إذا اتّصف بشيء من الحكمة في تحديد الأولويات المعرفية إلّا أن يجعله في رأس

---

(١) سورة الأنعام: ١٥٣.

قائمة هذه الأولويات، فهو الهاجس الأهمّ في هذه الحياة على الإطلاق.

[المرحلة الثانية: التأمل في أمر الدين الإسلامي]

ثم في المرحلة الثانية: تأملت أمر الدين.

وقدرت أولاً بحكم عقلي أن المنطق الملائم للاقتناع بالدين أن يثبت وفق الأدوات العقلانية والراشدة التي جُهز بها الإنسان في تكوينه العقلي، وأن تنطلق مضامينه في اتجاهاته وخطوطه العريضة مما فطر عليه الإنسان من نزوع إلى الحكمة والفضيلة. ولا ضير بعد ذلك من اشتماله على نصوص وتفاصيل متشابهة.

ثم لاحظت أن ما ينبغي الاهتمام به هو الدين الإلهي، وهو ما يتضمن نقل رسالة صريحة ومعلنة من الإله إلى الإنسان يبين فيها حقائق الوجود والحياة، ويوضح المسيرة الصحيحة له فيها. وأما الأديان المبتنية على تجارب بشرية بحتة، فهي لا تكشف كشفاً موثوقاً عن أي شيء حقيقي وخطير من قبيل ما تقدم. من جهة أن سعة قدرة الإنسان في التخيل والوهم تسمح بوقوعه في طيف من التخيلات والأوهام خلال تلك التجارب، على أنه في

حال ثبوت رسالة إلهية إلى الخلق لا محل للسعي إلى تلقي تعاليم الإله بالتجربة.

ولاحظت في تأمل الدين الإلهي أن ما يعرف بالأديان الإلهية الثلاثة (اليهودية، والمسيحية، والإسلام) هي في الحقيقة دين واحد، كما هو المتوقع، وكما صرح به القرآن الكريم، ولكن تعددت الرسائل الإلهية في داخل الدين الإلهي ليؤكد بعضها بعضاً، وذلك بدليل اتحادها في تعاليمها وأنبائها وعقائدها وتاريخها ورجالها واتجاهاتها وأصول تشريعاتها، حيث تتضمن الجميع وجوب الإيمان بالله سبحانه والدار الآخرة والرسل السابقين وكتبهم وتوصي بعبادة الله سبحانه بالصلاة والصيام والحج إلى بيت الإله والاعتكاف، وبرعاية القيم الأخلاقية من الإحسان والصدق والعفاف وأخواتها، فما يسمى بالدين الجديد إنما هو رسالة رسول آخر يؤكد على كل ما سبق ويزيل الأخطاء المهمة الطارئة، وقد ينسخ في رسالته بعض التفاصيل التشريعية باقتضاء العوامل المتغيرة الدخيلة في التشريع.

ووجدت في ضوء ذلك أن المفروض تأمل الدين الإلهي من خلال الإسلام الذي هو الرسالة الأخيرة، لأنه

أوثقها تاريخياً بالنظر إلى تدوين النص الرسالي فيه في زمان الرسول ﷺ، فهو أوثق فيما تعبر عنه من تعاليم عقائدية، وأحدث فيما تشتمل عليه من تعاليم تشريعية، وهو بعدُ رسالة إلهية عامة لا بد من تحريها والإذعان بها إذا كان الإنسان مشمولاً بها، إذ لا معنى لإعراض الإنسان عن رسالة موجهة إليه من قبل الله سبحانه اكتفاءً برسالة سابقة، مع اختصاص العناية في بعض الرسائل السابقة بقوم دون الإنسانية جمعاء ـ وفق ظروف الانقسام البشري حينها إلى أقوام متفرقين ـ، ولكن يبدو تهيؤ الوضع الإنساني العام لدين عام جامع من خلال الإسلام.

ولاحظتُ أنّ أفضل طريقة للتحقّق من الإسلام الاطلاع على النص الرسالي فيه وهو القرآن الكريم، لأن هذا النص هو بعينه النص الذي تلاه النبي ﷺ على المجتمع آنذاك، وفق الشواهد التاريخية الواضحة، فهو بذلك نص محفوظ على وجهه بشكل موثوق للغاية، ويمكن أن يدل على مضامين الدين دلالةً صادقة.

وقد وقفت على هذا النص وتأملته تأملاً وافياً فأقنعني بحقانية هذا الدين قناعةً تامة، وأيقنت من

خلاله أن الله سبحانه وتعالى فعلاً قد خاطب الإنسان من خلال نخبة من الناس، يوضح له فيها آفاق الوجود وموقع هذه الحياة وما يعقبه بعدها.

لقد كان هذا النص راشداً للغاية في المفاصل الثلاثة التي ينبغي اختبار حقانية الدين بها، وهي: منهجه في الدعوة، ومضامينه، ودلائله على الرسالة.

فقد لاحظت اعتماد هذا النص في منهجه في دعوة الإنسان إلى الإيمان بالله سبحانه وبالدين على الدعائم الفطرية الثلاث، وهي العقلانية (بمعنى إدراك الأمور على وجهها)، والحكمة (بمعنى الانتباه إلى سنن الكون والحياة والاعتبار بها)، والضمير الإنساني (المشتمل على القيم النبيلة) ـ موافقاً في ذلك مع المنهج الراشد والملائم والفطري الذي يتسق مع ما جُهّز به الإنسان ـ.

وأما مضامين هذ النص الرسالي: فقد كانت راشدة وملائمة جداً، حيث إنها كانت تدور حول محورين: الإله، والإنسان.

أما فيما يتعلق بالإله: فقد وجدت هذا النص نصّاً عقلانيّاً وموضوعيّاً ووجدانياً في الدلالة على الإله، حيثُ لفت نظري إلى ما أجده في نفسي وسائر ما حولي من

الكون والكائنات من وجوه النظم والجمال والروعة، ودعاني إلى التفكير في ذلك من خلال كثير من الآيات الكريمة[١]، فصرتُ أتحسّس وجود الله سبحانه وتعالى من خلال الكائنات كلّها.

وبدا لي أنّ وجود الله سبحانه أمرٌ لا شبهة فيه، إلّا أنّ الاعتياد على مشهد الحياة قد يطفئ دلالة الكون والكائنات في شعور الإنسان ابتداءً، ولكنه إذا حفّز تفكيره في هذا الاتجاه وتأمّله مليّاً وجده مقنعاً.

فاقتنعت بوجود الله سبحانه وتعالى قناعةً تملأ نفسي ووجداني من خلال النظر في آيات الله سبحانه وتعالى.

كما وجدت هذا النص راشداً في إثبات وحدة الإله ونفي ألوهية ما عدا الله سبحانه وتعالى، حيث إن مشهد الكون إنما يمثل إلهاً واحداً، وليس للإنسان أي برهان

---

(١) قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:١٦٤).

وحجة على وجود إله آخر، وسائر ما اعتبره الإنسان إلهاً ـ من بشر وأصنام وغيرها ـ كائنات حادثة وضعيفة ومخلوقة على حد أمثالها من سائر الأشياء والناس، فحديث الشرك إنما هو حديث خرافة وجهل حقاً.

وكذلك وجدت النص القرآني ملهماً في إثباته القيم الفاضلة للإله، حيث دل على أنه تعالى يحب الخير والعدل والإحسان والصدق والوفاء، ويكره الشر والظلم والاعتداء والكذب، وهو سبحانه يراعي هذه القيم تماماً رغم قدرته على كل شيء، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة، ولا يخلف وعداً قطعه على نفسه، ولا يقول إلا الحق والصدق، كما أنه يحب هذه القيم في الإنسان.

وقد تأملت فوجدت أن اتصاف الإله بذلك أمرٌ لائقٌ جداً؛ لأن الإله ذات تتصف بالعلم والإرادة والاختيار كما هو الحال في الإنسان، ومن كمال أي ذات بهذه الصفات مراعاة القيم الفاضلة، فما جاء في هذا النص عن أخلاق الإله كان راشداً وملائماً.

إذن ما جاء في هذا النص عن الإله ووحدته وخصائصه وأخلاقه أمور راشدة ومعقولة وملائمة أجد عليها دلائل الصدق وملامح الحق ومعالم الرشد.

وأما فيما يتعلق بالإنسان: فقد اعتمد هذا النص على اتصاف الإنسان بالخصال الأربع: بالتعقل، والنزوع إلى الحكمة، والضمير الأخلاقي، والإرادة الحرة، وذلك أمر صائب ومشهود.

كما تضمن النص عناية الإله بالإنسان الذي ميّزه بالعقل والضمير والحكمة، وأحب أن يهتدي إليه بعقله، ويسير على السنن التي سنّها من خلال حكمته، ويتعامل معه سبحانه ومع سائر بني نوعه بضميره الذي وهب إياه، فيقوم تجاهه مقام الشكر والأدب دون التجاهل والإهمال والكفران، كما قال تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ**﴾(١).

وقد أرسل سبحانه رسالاته إلى الإنسان في هذا السياق.

وهذا المعنى يبدو أمراً مناسباً، فإذا كان الإله المتصف بالعلم والحكمة والضمير ـ قد خلق الإنسان بهذه الصفات ـ فالمتوقع أن يتعامل معه على وفقها، كما يوافق ذلك نزوع الإنسان المشهود عبر التاريخ إلى الإله، والذي

---

(١) سورة البقرة:١٥٢.

قد يعبّر عن أن الإنسان قد فُطر على هذا النزوع، كما فُهم من قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّـهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾(١).

وكذلك تضمّن هذا النص ـ كالرسالات الإلهية من قبله ـ نبأً عظيماً للغاية يكاد يكون صاعقاً للإنسان، وهو أنّ هذه الحياة ليست الغاية ولا النهاية للإنسان، بل هي فرصة لاختبار تبصر الإنسان وسلوكه بعد أن هُدي إلى طريق الخير وسبيل الشر، وأُعطي الإرادة الحرة للاختيار، ليعود إلى الحياة في نشأة أخرى فيلقى درجته، قال سبحانه: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾(٢)، وبذلك تنقلب هذه الحياة كما ذكرنا من قبل من مكان للتلهي إلى محطة للامتحان.

وهذا النبأ رغم أنه نبأ جديد على الإنسان لكنه أمر وارد ومناسب، لاعتبارات عديدة، فهو يعطي معنىً عميقاً لوجود الإنسان ومغزى تعليمه وتربيته بالرسالة الإلهية، ويوجب كون السنن الأخلاقية معالم سعادة وشقاء في حياة أخرى. ويمثّل تقدير الإنسان لتبصّر

---

(١) سورة الروم:٣٠.

(٢) سورة الأنعام:١٣٢.

الإنسان وسلوكه في هذه الحياة، فلا استبعاد فيه إذا تمت الحجة على صدق الرسالة.

وأما دلائل صدق هذه الرسالة: فقد كانت مضمّنة في هذا النص بعينه، فقد كان هذا النص مقنعاً لي حقاً في إثبات خطاب الله سبحانه وتعالى من خلال رسول الإسلام ﷺ وما سبقه من الرسالات السابقة التي يحدثنا عن بعضها التاريخ.

إذ قد لاحظت بشكل واضح ومؤكد للغاية أنّ القرآن الكريم مثّل حدثاً هائلاً وتحدياً كبيراً في المجتمع العربي في الجزيرة في المستوى المضموني والأدبي، حيث جاء في أمة مشركة تجذرت فيها عبادة الأصنام وبني عليها نظامها الاجتماعي وليس لديها كتاب ديني ولا تعاليم دينية، وهي مهتمة جداً ببلاغة الكلام اهتماماً طاغياً عليها حتى كانت البلاغة مضماراً لشعرائها ـ جاء بكتاب ديني راقٍ جداً بالمقارنة مع الكتب المعهودة (من التوراة والإنجيل) يتضمن جميع مقومات الدين المعهودة من شؤون الإله وتاريخ الخلق وسيرة الأنبياء وشؤون التشريع، وكل ذلك بأسلوب بلاغي مميز تحدى به العرب مكرراً فعجزوا عن مجاراته عجزاً واضحاً.

إن ما تضمنه القرآن الكريم من مضامين روحية وتاريخية وتشريعية، وأدوات وأساليب بلاغية، كانت فوق استطاعة النبي ﷺ وفق ما عهده منه قومه من قبل، كما قال الله سبحانه في القرآن الكريم: ﴿**فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾(١).

ولم أجد من المعقول ـ عند تأمّل مجموع ذلك ـ أن أشكّ بحالٍ في أصل ظاهرة خطاب الله لخلقه من خلال الرسل، وأعتبرها ظاهرة زائفة من قبيل الخواطر الروحيّة البشريّة المحضة أو الدواعي الكاذبة لغاية الإصلاح الاجتماعيّ.

تأكّد حقانية دين الإسلام بموقف الإمام علي عليه السلام منه

وممّا زاد في قناعتي بذلك، أنّني وجدت الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مصدّقاً للنبي ﷺ، وكان عليه السلام كما تدلّ عليه الأخبار التاريخية الواضحة..

أولاً: ملازماً للنبي ﷺ قبل الرسالة، ويذهب معه إلى غار حِراء للعبادة، حيث كان قد أودعه أبو طالب

---

(١) سورة يونس:١٦.

عنده ﷺ، فكان عالماً بجميع خفايا وممارسات النبي ﷺ من دون شكّ.

وثانياً: نبيهاً وذكيّاً وفطناً، ولم يكن بالممكن استغفاله بحيث يؤمن بشيء لا واقع له.

وثالثاً: ـ ولا أشكّ في ذلك ـ أنّه عليه السلام كان باحثاً عن الحقيقة لنفسه، وأنّه عانى في سبيلها ما عانى، فلو كان في أحوال النبي ﷺ ما يدلّ على أنّها ناشئة عن تدبيره الشخصيّ لكان هو أوّل من يطّلع على ذلك، ولا يداهن في شأنه.

ولقد قال عليه السلام في كلام لابنه الحسن عليه السلام:

«واعلم يا بني، أنّ أحبّ ما أنت آخذ به إليَّ من وصيتي تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك، والأخذ بما مضى عليه الأوّلون من آبائك، والصالحون من أهل بيتك، فإنّهم لم يدّعوا أن نظروا لأنفسهم كما أنت ناظر، وفكّروا كما أنت مفكّر، ثمّ ردّهم آخر ذلك إلى الأخذ بما عرفوا والإمساك عمّا لم يكلّفوا... ـ إلى أن قال ـ **واعلم يا بني: أنّ أحداً لم ينبئ عن الله كما أنبأ عنه الرسول ﷺ فارض به رائداً، وإلى النجاة قائداً، فإنّي لم آلك نصيحة، وإنّك لن تبلغ في النظر لنفسك ـ وإن اجتهدت ـ مبلغ نظري لك.**

واعلم يا بني: أنّه لو كان لربّك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه، لا يضادّه في ملكه أحد، ولا يزول أبداً ولم يزل... »[1].

إذن، ففي إيمان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بالإسلام ـ وفق ما نعلمه من شخصيّته وسلوكه وأفكاره حسب الشواهد التاريخية الواضحة ـ شاهدٌ آخر على صدق هذه الرسالة.

وعليه، فإنّني اعتقدتُ أنّني قد استوثقت لنفسي، وأبصرت ـ حسب قناعتي ـ الحقيقة هذه بما يكفي للإيمان بالله والرسالات والدار الآخرة.

ولم أجد أنّ قُربي من هذه الحقيقة ـ من حيث الإيمان بها في أُسرتي وبيئتي ـ بالذي يبعث على الشكّ بعد أن تحرّكتُ بوازع داخليّ في البحث عن الحقيقة، وجِلاً من الخطأ في أمرها، حذِراً من الانسياق المحض وراء ما تلقّيته في الأسرة والبيئة المحيطة بي.

وقد علمت أنّ سنن الحياة تسمح بأن يكون قوم

---

(١) نهج البلاغة ص:٣٩٤-٣٩٦/ تحقيق: صبحي الصالح.

أقرب من قوم إلى الحقيقة في هذا الشأن، كما هو الحال في شأن سائر مجالات الحياة، فالقيم الإنسانيّة والأخلاقيّة مثلاً هي محل إذعان الجميع، ولكن بعض الناس يعيش بيئة مساعدة عليها، بينما يعيش آخرون في بيئات تتنكر لهذه القيم بشكل أو بآخر، ولا يُلام المرء في اعتقاد ما يجده في بيئته إذا تحرّى الحقيقة، وبحث عن الرشد، فوجد عليها علائم الحقّ ودلائل الصدق. إذ لا تخلو العقائد المختلفة المنتشرة في البيئات المتعدّدة من أن يكون بعضها حقاً.

شهادتي في شأن الدين

لقد ملأ الإيمان بالله سبحانه وتعالى ـ كما وصفه الدين ـ فراغاً كنت أشعر به في ذات نفسي، حتى كأنّني كنتُ قد أُلهمت في الأصل بوجود كائن أعلى أرتجيه في أوقات ضعفي وعجزي، وقد صرتُ أبصرُ وجود الله سبحانه وتعالى في الكائنات كلّها، حتى كأنّها رسوم أو نقوشٌ رسمها فنّان ماهر وعرضها للناس في معرض شخصيّ، فكلُّ المشاهد الرائعة في السماء والأرض فعلاً مشاهد مصمّمة بمعرفة خارقة، وهي معرض الإله سبحانه وتعالى أمام الإنسان.

لقد وقفتُ من خلال الدين على ربٍّ عالم وقدير وودود ولطيف، خلقني لأعرفه وآنس به، وهو يحبّني ويلطف بي ويرعاني، فكان مصدراً للطمأنينة والسكينة والتسلية والأمل، حيث أتعبَّد له بما أوصاني به من العبادات اليسيرة تأدّباً معه وشكراً لإنعامه، وإيفاءً بحاجاتي المعنوية والروحية.

وقد وعدني برعايته لي وولاية أمري في أحوالي كلّها.

وإنّي لأرجوه واثقاً من استجابته لي بمثل ما طلبته أو بما هو خير منه، وأناجيه في همومي وشدائدي، وأثق برعايته لي في مصاعب الحياة من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب، وإن كنت أعلم أنّ هذه الحياة سُنّت على سنن الاختبار والاجتهاد، ولكنّه يبارك لي في ثوابت مقاديرها، ويرعاني في متّسعاتها، ويحتسب لي الأجر في مضائقها، كما أنني أستعين به في ابتلاءاتي في هذه الحياة ليدفع عني السوء والخطيئة كما فعل بعباده الصالحين.

لقد حثّني الدين على الاتّصاف بالعقلانيّة في الأمور كلّها من خلال التبصّر والتأمّل والتثبّت والتفكير، وحذّرني من الأوهام والخرافات، ونهاني عن التسرع والاستعجال، وأوصاني بتجنب الانحياز إلى الأهواء

والعصبيات وسائر المبادئ غير الموضوعية.

ووجّهني الدين إلى تعلّم الحكمة والازدياد منها مدى الحياة، وشجّعني على رعايتها دوماً من خلال الاعتبار بالحوادث، والاتّعاظ بالأمثال، والتعلّم من تجارب الآخرين.

وقد نبّهني الدين على أنّ الفضائل هي سنن الخير في هذه الحياة وما بعدها، وأنّ الرذائل هي سنن الشرّ والقبح فيها، فدعاني إلى الصدق في الكلام، وترك القول بغير علم، والإيفاء بالوعد وسائر الالتزامات، وتجنّب الإساءة إلى الآخرين، والإحسان إلى المسيء، والشكر على الإحسان، وحبّ الخير للآخرين كما أحبّه لنفسي، وكراهة الشرّ لهم كما أكرهه لها، والتواضع مع الناس، والاعتدال في السلوك، والصفاء في النفس، والإنصاف للغير، ومجانبة التعلّقات المفرطة والمذِلَّة بالأمور الماديّة، وتجنّب المباهاة بها، وإثارة روح التنافس لدى الآخرين في شأنها، ومراعاة العفاف في النظر والمظهر والتصرّفات كلّها، والحزم في مواضعه، والاعتماد على النفس مهما أمكن، والكدّ في سبيل تحصيل الرزق الحلال، ومواساة الفقراء،

والاعتذار عن الخطأ، والاستغفار من الخطيئة، ومحاسبة النفس، والطموح في اكتساب الفضيلة، والتجاوز عن المخطئ.

ونبّهني الدين على أهميّة معرفة الحقيقة التي عرَّفنيها؛ للاهتمام بالمحافظة عليها، والتبصّر بها، وإيقاظ الآخرين للانتباه إليها، والالتفات إلى خطورتها بالحكمة والموعظة الحسنة، من دون إحراج أو إكراه .

فتلك أمورٌ خطيرة ومهمّة تعلّمتها من الدين، وبقيت عليّ عهدة العمل بها، والاجتهاد في سبيلها، أسال الله تعالى التوفيق والتسديد في ذلك.

وأختم هذا العرض بدعاء شريف يُروى أن الإمام الحسين دعا به في يوم عاشوراء، وهو من أحب الأدعية لي، كونه يمثل ما لامسته بنفسي من الله سبحانه وتعالى:

«اللَهُمَّ أَنْتَ ثِقَتِي فِي كُلِّ كَرْبٍ؛ وَأَنْتَ رَجَائِي فِي كُلِّ شِدَّةٍ؛ وَأَنْتَ لِي فِي كُلِّ أَمْرٍ نَزَلَ بِي ثِقَةٌ وَعُدَّةٌ.

كَمْ مِنْ هَمٍّ يَضْعُفُ فِيهِ الْفُؤَادُ، وَتَقِلُّ فِيهِ الْحِيلَةُ، وَيَخْذُلُ فِيهِ الصَّدِيقُ، وَيَشْمَتُ فِيهِ الْعَدُوُّ؛ أَنْزَلْتُهُ بِكَ، وَشَكَوْتُهُ إِلَيْكَ، رَغْبَةً مِنِّي إِلَيْكَ عَمَّنْ سِوَاكَ؛ فَفَرَّجْتَهُ

عَنِّي، وَكَشَفْتَهُ، وَكَفَيْتَهُ.

فَأَنْتَ وَلِيُّ كُلِّ نِعْمَةٍ، وَصَاحِبُ كُلِّ حَسَنَةٍ، وَمُنْتَهَى كُلِّ رَغْبَةٍ»[1].

والحمد لله ربِّ العالمين.

(١) تأريخ الطبري ج٤ ص٣٢١، ويروى عن الإمام الرضا عليه السلام أيضاً كما جاء في صحيح الريان بن الصلت [أمالي المفيد ص٢٧٣].